رحلات الحج من المغرب الأوسط إلى مكة المكرمة خلال العصر الوسيط

الأستاذ الدكتور: محمد بن معمّر

كليّة العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية

جامعة أحمد بن بلة – وهران 1

ملخص:

عُرف أهل المغرب الأوسط (الجزائر) كغيرهم من المغاربة عبر تاريخهم الإسلامي الطويل بحرصهم الكبير على أداء فريضة الحج باعتبارها ركنا من أركان الإسلام أولا، ثم ما سنحت لهم به هذه المناسبة السنوية من فرص اللقاء والتواصل مع إخوانهم المسلمين من أقطار الإسلام الأخرى ثانيا، فضلا عن أنّ رحلة الحج ذهابا وإيابا كانت تتخللها لقاءات علمية بين أهل العلم من شيوخ وطلبة. إن الفضاء الذي كان يعيش فيه المغاربة، رغم محامده ومناقبه، لم يكن كافيا لإشباع فضولهم وارضاء رغباتهم، لذلك كانوا دوما يسعون لرؤية عالم المشرق ومراكز إشعاعه الروحي والفكري تلك المراكز التي كان يتصدّرها قطب مكة بيت الله الحرام.

الكلمات المفتاحية: الحج؛ مكة المكرمة؛ المغرب الأوسط (الجزائر)؛ ركب الحج؛ الدولة الزيانية؛ المرينيون؛ العلماء؛ طلبة العلم

Résumé :

Les habitants du Maghreb Central (Algérie), comme d'autres Maghrébins, savaient, à travers leur longue histoire islamique, leur grand souci d'accomplir le Hajj en tant que pilier de l'Islam. Ensuite, ils ont eu l'occasion de rencontrer et de communiquer avec leurs frères musulmans d'autres pays de l'Islam. Aussi bien que le voyage de pèlerinage dans les deux sens a été entrecoupé de rencontres scientifiques entre les savants et les étudiants. L'espace dans lequel vivaient les maghrébins, malgré leurs précurseurs, n'était pas suffisant pour satisfaire leur curiosité et satisfaire leurs désirs. Par conséquent, ils ont toujours cherché à voir le monde de l'orient et ses centres de rayonnement spirituels et intellectuels, les centres qui étaient dirigés par le pôle de la Mecque.

الحج في المغرب الأوسط قبل تنظيم الرّكب الرسمي:

إنّ الحديث عن بدايات الحج في الجزائر (المغرب الأوسط) لا يمكن تناوله بمعزل عن بلاد الغرب الإسلامي، إذ كان المغرب الأوسط جزءا لا يتجزّأ من هذه الرقعة الجغرافية الواقعة بين الحدود الليبية المصرية شرقا، والمحيط الأطلسي غربا، والأندلس شمالا، والصحراء الكبرى جنوبا، فالتشابه في الأوضاع، والتداخل في الأحداث، والتقاطع في الطرق والمسالك، والمعاناة والمصاعب في الرحلة وغيرها ممّا تعلق برحلة الحج، كل ذلك كان سمة مشتركة بين حجاج الغرب الإسلامي.

لقد كان هؤلاء الحجاج يشعرون بانتمائهم لإقليم واحد طوال فترات التاريخ الإسلامي، بحيث نجد أن القاضي يمكن أن يكون أصلا من المغرب الأدنى (تونس حاليا) ويتعلم بقرطبة (الأندلس)، ويستقضى بالمغرب الأوسط (تلمسان) ليتحول إلى قضاء إشبيلية، ثم يعين قاضيا بالمغرب الأقصى (فاس) على أن يصل إشعاعه إلى مالي في قلب إفريقيا الغربية، كما ذكر أحد الباحثين[1] .

عُرف أهل المغرب الأوسط كغيرهم من المغاربة عبر تاريخهم الإسلامي الطويل بحرصهم الكبير على أداء فريضة الحج باعتبارها ركنا من أركان الإسلام أولا، وما سنحت لهم به هذه المناسبة السنوية من فرص اللقاء والتواصل مع إخوانهم المسلمين من أقطار الإسلام الأخرى، فضلا عن أنّ رحلة الحج ذهابا وإيابا كانت تتخللها لقاءات علمية بين أهل العلم من شيوخ وطلبة.

إن الفضاء الذي كان يعيش فيه المغاربة، رغم محامده ومناقبه، لم يكن كافيا لإشباع فضولهم وارضاء رغباتهم، لذلك كانوا دوما يسعون لرؤية عالم المشرق ومراكز إشعاعه الروحي والفكري تلك المراكز التي كان يتصدّرها قطب مكة بيت الله الحرام.

وتحفل كتب التراجم والطبقات والسير والفهارس ومصادر التاريخ العام بذكر مجموعة من رجال المغرب الأوسط الذين شدّوا الرّحال إلى مكة المكرمة منذ القرن الثاني الهجري بصفة فردية أحيانا وجماعية أحيانا أخرى، وإن كان الغالب على النصوص تركيزها على الرحلات الفردية، لأنّ المنهج الذي اتبعه أصحاب هذه المصنفات يقوم أساسا على الترجمة الفردية للمرتحل، مما يفسر اقتصارهم على ذكر اسمه ونسبه ومنطلق رحلته وخط سيره وصولا إلى مكة، مع ذكر الشيوخ المكيين الذين تتلمذ عليهم، لذلك نجد صيغة الفعل المستعملة

(1) عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، الرياض، 2005، ص 24.

لدى هؤلاء في تراجمهم وردت في قالب مفرد من قبيل رحل، وسمع، وأخذ، ولقي، وغيرها من الصيغ المتداولة لغويا للتعبير عن الفعل الفردي.

ولأنّ المقام لا يتسع لذكر المرتحلين من أهل المغرب الأوسط إلى الحج خلال القرون الهجرية الأولى نظرا لكثرتهم فسنكتفي بذكر بعضهم. فمن المعروف أنّ بلاد المغرب الأوسط بعد أن اكتمل فتحها الإسلامي في القرن الهجري الأول، شهدت خلال القرن الثاني العديد من الثورات العنيفة التي قادها الخوارج ضد الخلافة الأموية في بلاد المغرب، ولم تستقر أحوالها إلا مع نهاية هذا القرن لما تأسست الدولة الرستمية الإباضية فعاد الأمن والهدوء وتوفرت أسباب الرحلة إلى الحج.

يذكر ابن الصغير المالكي المعاصر للرّستميين وأقدم من كتب عنهم أنّ الإمام الرّستمي الثالث أفلح بن عبد الوهاب الذي حكم الفترة (208-258هـ) لما طلب منه ابنه أبو اليقظان محمد الإذن له بالحج وكان حسن الحال ورعا، أذن له بذلك فخرج مع قافلة الناس حتى ورد مكة سنة 238هـ، فلما طاف وسعى كشفته رسل بني العباس فاعتقلوه بتهمة التآمر مع أبيه ضد الخلافة العباسية، ولم يطلق سراحه إلاّ بعد مدّة، وعاد إلى تيهرت فوجد الثورة قائمة على أخيه فبايعه أهلها إماما عليهم سنة 261هـ[1].

وجاء في تاريخ علماء الأندلس أنّ أبا عمر أحمد بن الحسين بن محمد الطبني، نسبة إلى طبنة إحدى مدن الزاب بالمغرب الأوسط، المتوفى سنة 390هـ سمع بقرطبة من ابن أصبغ ورحل إلى المشرق حاجا سنة 342هـ وسمع في رحلته سماعا يسيرا وكان رجلا صالحا فاضلا، حدّث وكتبت عنه أحاديث[2].

ويذكر صاحب نفح الطيب أنّ أبا مروان عبد الملك بن زيادة الله بن علي الطبني (396ـ457هـ)، الشاعر العالم باللغة والأدب والفقه، رحل إلى المشرق وحج وكتب عمّن لقي من العلماء بالقيروان ومصر ومكة وغيرها[3].

ونذكر أبا القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الوهراني المعروف بابن الخراز المتوفى في حدود سنة 400هـ، من أهل وهران، وهو من علماء الحديث ورجاله ومن كبار الفقهاء، رحل إلى المشرق وحجّ وسمع من

(1) ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستميين، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص 64.

(2) ابن الفرضي عبد الله بن محمد، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمن، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997، ص 62

(3) أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968، ج 2، ص 496.

علماء مصر والحجاز والعراق وخراسان، وأقام في رحلته نحو عشرين عاما ثم عاد ودخل الأندلس فروى عنه ابن حزم وابن عبد البر[1].

واستمرّ أهل المغرب الأوسط بعد ذلك في الرحلة إلى الحجاز على عهد الدولة الحمادية (408-547هـ)، وقد توقفت هذه الرحلات في بعض الفترات بسبب بعض الأحداث التي تعرضت لها هذه الدولة وما انجرّ عنها من انعدام الأمن وعدم توفر اسباب الرحلة، مثل الزحف الهلالي مع منتصف القرن الخامس الهجري وما صحبه من تخريب وقطع الطّرق ونشر الفوضى واعتراض سبيل الناس.

وفي منتصف القرن السادس الهجري (12م) نجح الموحدون في توحيد بلاد المغرب والأندلس تحت رايتهم فأصبح المغرب الأوسط يتكوّن من ولايتين خاضعتين لسلطتهم هما بجاية في الشرق وتلمسان في الغرب، وقد نعم المغرب الأوسط في ظل حكمهم بالأمن والهدوء والرخاء الاقتصادي ممّا وفّر أسباب الرحلة إلى الحجاز وهو ما تؤكده كتب التراجم التي حفلت بهؤلاء المرتحلين مثل كتاب عنوان الدراية للغبريني والبستان لابن مريم والتكملة لابن الأبّار والذيل والتكملة لابن عبد الملك وغيرها.

وهناك تطور هام عرفته الرحلات الحجية في أواسط هذا العصر، ونعني به عصر الموحدين، لما تأسّس أول ركب حج مغربي وهو الركب الصالحي على يد أحد أعلامهم وهو الشيخ الإمام الداعية أبي محمد صالح الماجري المتوفى سنة 631 هـ، وقد ظل هذا الركب ملتزما بطريقه لأداء فريضة الحج في ذهابه وإيابه من مدينة آسفي المغربية إلى الحجاز. ويشير المرحوم الأستاذ محمد المنوني إلى أن الطريق التي كان يسلكها هذا الركب هي نفسها التي سلكها في الغالب الرحالة العبدري، ووصفها في مقصورته التي ختم بها رحلته بطريقة مركزة وملخصة[2].

ولتنظيم الركب الصالحي، سنّ له مؤسسه عدة تنظيمات، منها: نصب مقدمين للحجاج موزعين بين الجهات التي بها مريدوه، وتوصية الحجاج بالتزام السفر على طريق البر، وحظر عليهم ركوب البحر، تفاديا لأخطار القرصنة، وتنظيم مراكز لنزول المسافرين انطلاقا من رباط أسفي، وانتهاء عند الحرمين الشريفين، وتجهيز هذه المراكز بالقيمين عليها[3].

---

(1) أحمد بن عميرة الضبّي، بغية الملتمس، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997، ص 319.

(2) أبو عبد الله محمد العبدري، رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، 1968، ص 280.

(3) أحمد بن إبراهيم الماجري، المنهاج الواضح، المطبعة المصرية، 1933، ص 353.

ويعود الفضل إلى مشروع الركب الصالحي في انتظام السفر إلى البقاع المقدسة في رحلة جماعية أو ما يعرف بركب الحج أو ركب الحاج أو ركب الحجيج أو الركب النبوي[1]، وكان لذلك أثره الكبير في اتساع نطاق ركب الحج الذي عمّ كل أقطار المغرب الإسلامي حيث نشأت على مرّ الزمن العديد من الأركاب في هذه الأقطار بما فيها الأركاب الرسمية التي كانت ترعاها الدّول التي خلفت الموحدين.

تنظيم ركب الحج الرّسمي في العهد الزيّاني

حكمت الدولة الزيانية المغرب الأوسط من ثلاثينيات القرن السابع الهجري إلى غاية القرن العاشر الهجري، وعاشت بين دولتين قويتين هما الدولة الحفصية شرقا والدولة المرينية غربا، ما جعلها عرضة للهجمات بشكل مستمر تارة من جيرانها الشرقيين وتارة من جيرانها الغربيين خصوصا في القرنين السابع والثامن الهجريين، وتسبب لها ذلك في الكثير من النكسات.

ورغم تعرّض العاصمة الزيانية تلمسان للغزو المريني في أواخر القرن السابع الهجري فإنّها ظلت محطة رئيسية تنطلق منها قوافل الحجاج إلى مكة، فالرحالة العبدري الذي شرع في تسجيل رحلته الحجية من تلمسان في ربيع الأول سنة 689هـ/1290م يسجّل مستغربا ومستهجنا سلوك الأمير الزياني صاحب تلمسان أبي سعيد عثمان (681-703هـ) حين ورد إليه جمع من الحجاج ينيفون عن الألف فأعطاهم دينارا واحدا[2]، وهو ما يدل على الأزمة المالية الخانقة التي كانت تمر بها الدولة بسبب الحروب والنزاعات، كما أنّ العدد الكبير من الحجاج المشار إليه كان بمثابة ركب لكنه غير رسمي، وأنّ تلمسان كانت محطة رئيسية لقوافل الحج المرتحلة من الجهات الغربية لبلاد المغرب الإسلامي.

تناولت المصادر التاريخية موضوع ركب الحج خلال هذا العصر في ثنايا حديثها عن العلاقات المشرقية المغربية وخاصة المصرية منها أثناء حكم المماليك للأسباب التي ذكرها ابن خلدون حين يقول: ولم تزل ملوك المغرب على القدم ولهذا العهد يعرفون لملوك الترك بمصر حقهم، ويوجبون لهم الفضل والمزية بما خصهم الله من ضخامة الملك، وشرف الولاية بالمساجد المعظمة، وخدمة الحرمين الشريفين، وكانت المهاداة بينهم تتصل بعض الأحيان ثم تنقطع بما يعرض في الدولتين من الأحوال.

(1) محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، ، تطوان، مطبعة المخزن، 1953، ص 7.
(2) العبدري، الرحلة، ص 11.

وكانت الفتن التي صاحبت نقل الحكم من الموحدين إلى ورثتهم من الدول الثلاث خصوصا المرينيين خلال القرن السابع الهجري سببا في انقطاع رحلة الحج مدّة، ولما استتب الأمن وهدأت الأحوال انتظمت الرحلة من جديد وهو ما يلخصه ابن خلدون في العبارات التالية: واستجدّ أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم، ورغبوا من السلطان إذنه لركب الحج في السفر إلى مكة، فقد كان عهدهم بعد بمثلها لفساد السابلة واستهجان الدول[1].

واقترن تنظيم أول ركب رسمي في هذا العصر بالتوسع المريني في أراضي المغرب الأوسط الذي قام به السلطان أبو يعقوب يوسف الناصر (685-706هـ)، حين حاصر تلمسان مدّة ثماني سنوات ابتداء من سنة 698هـ/1299م، وشيّد مدينة جديدة بالقرب منها سمّاها المنصورة، ومنها انطلق لإخضاع مجموع المغرب الأوسط إلى مشارف جزائر بني مزغنة، في انتظار أن تفتح له تلمسان أبوابها.

وبما أنّ هذا الركب أول ما بعثه المرينيون فقد كان يكتسي أهمّية خاصة، ونظمه السلطان يوسف تنظيما يليق به حتى يستمر نموذجا للركاب بعده، ومن مظاهر الاحتفال بهذا الركب انتساخ المصحف الشريف الذي أهداه للحرم المكي، وعن هذا المصحف يقول ابن خلدون: فأمر السلطان بانتساخ مصحف رائق الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه، وعمل غشاءه، من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدرر والياقوت، وجعلت منها حصاة وسط المغلق تفوق الحصيات مقدارا وشكلا وحسنا، واستكثر من الأصونة عليه[2]. أما كاتب هذا المصحف فهو أبو العباس أحمد بن حسن البلياني التلمساني الذي ترجم له ابن مرزوق في المسند الصحيح الحسن[3].

وعيّن السلطان للركب قاضيا هو محمد بن زغبوش أحد أعلام المغرب، وبعث معه فرقة عسكرية لحمايته تناهز خمسمائة من أبطال زناتة، وأموالا كثيرة برسم توزيعها على سكان الحرمين الشريفين مكة المكرمة

(1) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، مج 7، ص 267.

(2) المصدر نفسه، ص 268.

(3) قال عنه: هذا الرجل نخبة في عصره في حسن الخط والتصرف فيه مع طلب وأدب ونبل، وكان قاضي الجماعة يستكتبه في الكتب الملوكية، وتولى خطة شهداء بيت المال أشرف خطط العدالة وهي الشهادة على الداخل والخارج. أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، تحقيق ماريا خيسوس، الجزائر، المكتبة الوطنية، 1981، ص 313.

والمدينة المنورة. كما بعث معه سفيرا إلى صاحب الديار المصرية الملك الناصر محملا برسالة غايتها التوصية بالركب، مصحوبة بهدية عظيمة فيها أربعمائة من المطايا الفارهة، وغيرها[1].

وكان في الركب جماعة من رجالات الصلاح والعلم برسم حمل هدية المصحف الشريف للحرم المكي، منهم أبو عبد الله القصار كبير علماء المغرب، وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم اليقوري المكلف الرسمي بحمل المصحف، كما أشار المرحوم محمد المنوني إلى وثيقة معاصرة وهي رسالة صادرة عن السلطان يوسف المريني إلى كبير أشراف آل أمغار يلتمس منه فيها تعيين ثلاثة رجال من بيتهم ليتوجهوا إلى بلاد الحجاز المشرفة مع من يتوجه برسم حمل الربعة القرآنية، وكسوة البيت الكريم، وهي مؤرخة في 11 صفر 703هـ/1303م[2]. وبعد انتهاء التحضيرات اللازمة انطلق الركب من مدينة تلمسان في شهر ربيع الأول من سنة 703هـ/1303م.

ولم تخبرنا المصادر التي أرخت لهذا الركب عن مسار رحلته ذهابا وإيابا وأخباره في الطريق وفي الحجاز، ولكنها تقفز على كل ذلك وتقول إنّ هذا الركب عاد إلى تلمسان في ربيع الثاني سنة 704هـ ومعه الشريف لبيدة ابن أبي نمي صاحب مكة نازعا عن الملك الناصر صاحب مصر لما كان تقبض على أخويه إثر مهلك أبيهم سنة 702هـ، وقد استبلغ السلطان المريني في تكريمه، وسرحه يجول في بلاد المغرب وأوعز إلى عماله بتكريمه وإتحافه، ثم رجع إلى حضرته في تلمسان سنة 705هـ، وفصل منها إلى المشرق وصحبه من أعلام المغرب أبو عبد الله فوزي حاجا[3].

وفي شهر ربيع الأول من السنة الموالية وهي سنة 704هـ، جهّز السلطان يوسف ركبا رسميا آخر من تلمسان جعل إمارته لأبي زيد الغفائري، وبعث معه السفير علاء الدين ايدغدي الشهرزوري أحد مقرّبيه إلى الملك الناصر صاحب مصر محملا برسالة غايتها التوصية بالركب، مصحوبة بهدية حافلة على غرار ما فعل مع الركب السابق، وكان في الهدية عدد من الخيل والبغال والإبل وكثير من ماعون المغرب وسائر طرفه، وجملة من الذهب العين[4].

(1) علي ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، الرباط، المطبعة الملكية، 1999، ص 512.

(2) محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1996، ص 173.

(3) عبد الرحمن بن خلدون، العبر، 268/7.

(4) عبد الرحمن بن خلدون، العبر، 499/5.

ويضيف ابن خلدون في رحلته قائلا: أخبرني الفقيه أبو إسحاق الحسناوي كاتب الحفصيين بتونس أنّه عاين تلك الهدية عند مرورها بتونس، قال وعددت من صنف البغال الفارهة فيها أربعمائة وسكت عمّا سوى ذلك، وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب أبو الحسن التنسي[1] كبير أهل الفتيا بتلمسان[2].

ولما وصل ركب الحج إلى القاهرة قابله الملك الناصر بأبلغ وجوه التكرمة وبعث معهم أميرا لإكرامهم وخدمتهم في طريقهم إلى البقاع المقدّسة حتى قضوا فرضهم، كما أكرم السفير المغربي وأنزله بالميدان وأجرى عليه الرواتب. ومثل الركب السابق فلم تشر المصادر التاريخية إلى تفاصيل أخرى عن هذا الركب لأنّ هدفها كان التأريخ للسفارة السياسية المتبادلة بين ملك مصر وسلطان المغرب وما حديثها عن ركب الحج إلا لاقترانه بهذه السفارة.

وفي شعبان من سنة 705هـ/1305م عاد الرّكب إلى تلمسان ومعه الدليل أبو زيد الغفائري يحمل معه بيعة أشراف مكة للسلطان المريني، لما أسفهم الناصر ملك مصر بالتقبض على إخوانهم، وأهدوا لسلطان المغرب مع البيعة ثوبا من كسوة الكعبة، شغف به واتخذ منه ثوبا للباسه في الجمع والأعياد، يستبطنه بين ثيابه تبركا به[3].

وفي أواخر سنة 706هـ /1306م لما كان أمير تلمسان محمد الأول على وشك الاستسلام للمرينيين، وصله خبر اغتيال السلطان المريني يوسف، فكان ذلك سببا في رفع الحصار عن تلمسان الذي دام ثماني سنوات، ووقّع الطرفان الهدنة، وفشلت المحاولة المرينية الأولى لتوحيد المغربين، وأصبح أمراء بني حفص وبني مرين منشغلين بقضاياهم الداخلية، بينما استطاع بنو زيان تنظيم مملكتهم بإعانة كتاب وفقهاء من الأندلس وأدخلوا المراسم الملوكية وأعطوا لحكمهم رونق الحضارة والأبهة وذلك في عهد أبي حمو موسى الأول وابنه أبي تاشفين عبد الرحمن الأول الذين امتدت فترة حكمهما من سنة 707هـ/1308م حتى سنة 737هـ/1337م تاريخ التوسع المريني الثاني.

---

(1) ترجم له صاحب بغية الرواد قائلا: من كبار العلماء العاملين، معظّم عند الملوك والعامة، ذو ورع شديد، وتصرّف في الرسالة بين ملوك المغرب والمشرق، فانجرت بها إليه التهمة من ملوك تلمسان أيام الحصار الأول فخرج إلى السلطان المريني يوسف فبالغ في برّه. يحي بن خلدون، بغية الرواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، المكتبة الوطنية، 1980، ص 114.

(2) عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1979، ص 372.

(3) عبد الرحمن بن خلدون، العبر، 268/7.

وخلال هذه الفترة التي تحرّر فيها أمراء بني زيان من الضغوط المرينية والحفصية أصبحوا يشرفون بأنفسهم على تنظيم أركاب الحج وتجهيزها، ومنها الركب الذي انطلق من تلمسان في شهر ربيع الأول سنة 724هـ/1324م، وكان الأمير عليه الشيخ أبو زكريا يحي بن عمر بن جرار العبد الوادي[1].

ومصدرنا حول هذا الركب هو كتاب المناقب المرزوقية لأبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني الشهير بابن مرزوق الخطيب المولود سنة 711هـ/1311م، والمتوفى سنة 781هـ/1379م[2]، والذي كان رفقة والده أبي العباس أحمد بن مرزوق ضمن هذا الركب، وهي الرحلة الثانية للوالد[3] والأولى لابنه الخطيب، وكان ضمن هذا الركب أيضا حجاج من فاس وطنجة ومليانة ذكر أسماءهم الخطيب[4].

اقتصر ابن مرزوق الخطيب في حديثه عن مسار الرحلة أثناء الذهاب، على ذكر المحطات الكبرى التي مرّ بها وأسماء من لقيهم فيها من العلماء والفقهاء والصلحاء والأخذ عنهم، وهي بجاية وقسنطينة وتونس والإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة، مما يدل على أثر الرحلة الحجية في تكوين شاب متعطّش للعلم والمعرفة،

---

(1) قال ابن خلدون إنّ بني جرار هؤلاء كانوا من فصائل يندوكس بن طاع الله وهم بنو جرار بن يعلى بن يندوكس، فخذ من بطون بني عبد الواد، صار الملك إليهم واستبدوا به فجرّوا على جميع الفصائل من عشائرهم ذيل الاحتقار، وقد نافسوا في بعض الأحيان بني عمومتهم الزيانيين السلطة، وسيأتي الحديث عن أمير آخر من هذه العائلة حين يتولى ركب الحج عدّة سنين. عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، 136/7.

(2) لعل خير ترجمة لابن مرزوق الخطيب هو ما كتبه الرجل بنفسه عن حياته وحياة أسرته، مما نجده في مختلف مؤلفاته التي وصلتنا وعلى رأسها المناقب المرزوقية، وكتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، ففيهما قدر كبير من المعلومات المتنوعة عن مختلف مناحي حياته الشخصية وتكوينه العلمي وانخراطه في الحياة السياسية لعصره. هذا وقد ترجمت للخطيب مصادر عديدة منها الإحاطة لابن الخطيب، ويحي بن خلدون في بغية الرواد، وعبد الرحمن بن خلدون في الرحلة، وابن فرحون في الديباج، وابن حجر في الدرر الكامنة، وابن القاضي في الجذوة، والسيوطي في حسن المحاضرة وغيرها من المصادر.

(3) يقول ابن مرزوق الخطيب وهو خير من ترجم لوالده أحمد إنّ رحلته الأولى إلى الحج كانت سنة 717هـ/1317م، وقد خصص له حيّزا هاما من كتابه المناقب المرزوقية، فتحدث عن مولده وشيوخه وسيرته وورعه وصفاته وتواضعه وأحواله في مكة والمدينة أثناء حجاته الثلاث وإقامته هناك مدة طويلة وغير ذلك من الفصول التي تلقي الضوء على جزئيات حياته الشخصية والروحية منذ ولادته سنة 681هـ/1282م إلى وفاته بمكة سنة 741هـ/1341م. أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2008، ص 188-272.

(4) المصدر نفسه، ص 301.

حريص على تقوية مداركه وتنويع مناهله، فالحج وطلب العلم كانا وجهين لعملة واحدة في تلك العصور، ولم تكن تحدو هؤلاء المرتحلين الرغبة الدينية الجامحة المتمثلة في أداء الفريضة فحسب، بل كان يراودهم أيضا تحقيق الطموح العلمي، وهو ما تعكسه الصيغ التعبيرية الواردة في كتب التراجم والفهارس من قبيل حج وطلب العلم، ورحل حاجا وسمع في رحلته، وحج وسمع بمكة وغيرها.

وحسب ابن خلدون فقد حجّ من كبار رجال الدولة الزيانية هذه السنة أيضا، ونعني بها سنة 724هـ، حاجب السلطان الزياني أبي تاشفين وهو هلال مولى يحي بن موسى، أصله من سبي النصارى الكطلان أهداه ابن الأحمر صاحب غرناطة إلى الأمير عثمان بن يغمراسن ثم صار لأبي تاشفين فاتخذه حاجبا، وكان مهيبا فظا غليظا أرهب الناس بسطوته، استأذن السلطان في الحج فأذن له، وأقلع من مرسى هنين بساحل تلمسان في بعض السفن التي اشتراها بماله وشحنها بالعدة والأقوات والمقاتلة ونزل الإسكندرية، ثم صحب ركب الحج من القاهرة برّا، ولقي في طريقه سلطان السودان من مالي منسى موسى واستحكمت بينهما المودّة[1]. وقد بخل علينا ابن خلدون بمعلومات إضافية عن رحلة الحاجب هلال هذا، ومن رافقه من رجال الدولة الآخرين، وهل كان بمفرده، ولماذا فضل الطريق البحري حتى الإسكندرية وغيرها من المعلومات.

وبعد أداء الفريضة سنة 724هـ أقام ابن مرزوق الخطيب مع والده في مكة سنة كاملة ثم رحل إلى المدينة المنورة وأقام فيها حتى أواخر سنة 728هـ يحج كل سنة مع والده، وقد ركّز الحديث عن أخبار وأحوال والده وسيرته أيام مجاورته بمكة والمدينة. ففي مكة كان إذا صلّى الصبح جلس لتلاوة القرآن حتى يرتفع النهار فيصلّي الضحى ويخرج لمواساة الضعفاء، ثم يشرع في الطواف إلى وقت الهجيرة، ثم يعود إلى منزله فينام قليلا، ثم يقوم فيتلو إلى أن يصلّي الظهر ويطوف إلى صلاة العصر، ثم يعود للتلاوة إلى الغروب، وبعد صلاة العشاء يستمر في التهجد والطواف ثم ينام قليلا ويقوم لصلاة الصبح فكان أكثر الناس طوافا، إذ كان يطوف بين نهاره وليله اثنين وثمانين ميلا[2]. ومن الأماكن التي سكنها ابن مرزوق رفقة والده في مكة بئر ابراهيم، ورباط الخوزي، ورباط موفق.

ومن المفيد أن نسوق هنا الشهادة الحيّة التي خصّ بها الرحالة ابن بطوطة أحمد بن مرزوق وتؤكّد شهادة ابنه الخطيب إذ يقول: منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاة، رأيته بمكة المعظمة سنة 728هـ وهو أكثر الناس طوافا، وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدّة

(1) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، 135/7.

(2) ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، ص 213.

الحرّ، والمطاف مفروش بالحجارة السود وتصير بحرّ الشمس كأنها الصفائح المحماة، ولقد رأيت السقائين يصبّون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذي يصب فيه إلا ويلتهب من حينه، وأكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب، وكان ابن مرزوق يطوف حافي القدمين[1].

وفي المدينة المنورة كان دأبه قراءة القرآن صباح مساء، وصلاة التهجد، والجلوس لسماع قراءة الكتب التي كانت تقرأ في الروضة الشريفة، ومواساة الضعفاء، وقد سكن في أماكن مختلفة من المدينة حتى أواخر سنة 728هـ، منها دار بمقربة من باب السلام كانت لأحد مؤذني المسجد النبوي، وسكن بالدويرة التي فيها مبرك الناقة قرب المدرسة الشهابية حيث كان يقرأ الخطيب، وسكن في رباط دكالة بالدويرة التي بنيت بدار عثمان بن عفان رضي الله عنه وكانت معظمة يسكنها الأكابر، وكانت لإمام المسجد النبوي الحسن بن علي الواسطي أعطاها لابن مرزوق حين رحل إلى مكة للمجاورة، كما سكن مدّة بدار الفقيه ابن فرحون قرب باب الرحمة[2].

وبعد قضاء الحجة الأخيرة توجه إلى بيت المقدس ومنها إلى الخليل ثم القاهرة التي روى بها عن جماعة من علمائها، ثم الإسكندرية عائدا إلى المغرب الأوسط على بلاد الجريد جنوب تونس وصولا إلى تلمسان سنة 729هـ/1329م[3].

إنّ هذه الرحلة التي استغرقت خمس سنوات تعتبر مرحلة حاسمة من مراحل حياة ابن مرزوق الخطيب، إذ أتاحت له زيارة أكبر حواضر المشرق الإسلامي، والتتلمذ على أشهر علمائها الذين بلغ عددهم مائة وخمسين شيخا، وسنحت له بتسليط الأضواء على إقامته مع والده بالمشرق وعلى مناحي الحياة الروحية والاجتماعية والعلمية في كل من الحجاز ومصر.

أقام ابن مرزوق الخطيب بتلمسان إلى حدود سنة 734هـ/1334م، ثم عاد إلى الحجاز أيضا على بلاد الجريد جنوب تونس رفقة والده، وهي الرحلة الثانية للأول والثالثة للثاني، وبعد أداء الحج رحل إلى القاهرة، تاركا والده في المدينة المنورة، فأقام بها إلى آخر سنة 736هـ/1336، وفي السنة الموالية عاد إلى تلمسان فوجد السلطان أبا الحسن المريني محاصرا لها، ولما فتحها قرّبه وأدخله في حاشيته، وجعله مفضي سرّه، وإمام جمعته، وخطيب منبره، وأمين رسالته، فكانت تلك مرحلة جديدة من حياته.

---

(1) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، ج 1، ص 357.

(2) ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، ص 220.

(3) ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، ص 304.

وكعادته فقد سلّط ابن مرزوق الخطيب في هذه الرحلة الضوء على سيرة والده من صلاة وطواف وقراءة القرآن وغيرها من أحواله التعبدية، وأماكن سكناه في مكة والمدينة، وقد حاول مرارا أن يقنع والده بالبقاء معه مجاورا في الحرمين، واستعمل كل الوسائل في سبيل ذلك ولكن دون جدوى، فقد أصرّ الوالد على عودة الخطيب إلى تلمسان للوقوف إلى جانب أخته وعمّه محمد.

ولم يكن أمام الخطيب سوى الاذعان فتجهّز للرحيل بعد أن أوصاه والده بأمور تتعلق بدنياه وأخراه مثل ترك الدنيا، وطلب العلم، وتجنّب خطة القضاء ومخالطة السلطان، وقيام الليل وتعاهد الصيام وغير ذلك، وفارقه في جو من التأثر والبكاء، وبقي الوالد أحمد بن مرزوق هناك في المدينة المنورة يكرّر الحج كل سنة، دون أن تنقطع أخباره عن ولده الخطيب عن طريق الحجاج الوافدين، ولما قرب أجله رحل إلى مكة حيث وافته المنية في آخر سنة 741هـ/1341م[1].

وفي سنة 732هـ/1332م تولّى حكم المرينيين السلطان أبو الحسن علي، وكان في مستوى كبار الملوك المغاربة بعلمه وهمته وورعه وأخلاقه وعدله، بسط سلطته كاملة على المغرب الأقصى ثم اتجه إلى تلمسان عاصمة بني زيان فاستولى عليها في رمضان سنة 737هـ/1337م بعد أن قضى على أميرها أبي تاشفين عبد الرحمن، فكتب للناصر بن قلاوون صاحب مصر يعرفه بفتح تلمسان، وارتفاع العوائق عن ركب الحجاج في طريقهم، وكان سفيره في ذلك فارس بن ميمون بن وردار، ثم عاد السفير بجواب الكتاب وتقرير المودة بينهما[2].

ويقول ابن مرزوق الخطيب عن هذا السلطان الذي خصّه بكتابه المسند الصحيح الحسن، إنّه كان يعمل على تمهيد السبيل لحجاج بيت الله وزوّار نبيّه عليه الصلاة والسلام، وكان دأبه المعونة على الوجهة لهذا العمل، ويجهّز الرّكوبات دائما من المغرب، ولما نزل تلمسان وحاصرها كان أعظم ما نقم على صاحبها تعرّضه للمتوجهين من المغرب برسم الحج، ولما فتحها صار يعيّن في كل سنة ركبا متوجها[3].

(1) ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، ص 248 وما بعدها.
(2) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، 314/7.
(3) ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، ص 385.

وفي السنة الموالية من فتح تلمسان ونعني بها سنة 738هـ/1338م، أشرف السلطان أبو الحسن على تجهيز ركب الحج لهذه السنة، وكان ركبا جليلا طارت شهرته الفائقة بالمغرب والمشرق بما كان فيه من المصحف الشريف الذي بعثه السلطان هدية للمسجد النبوي، ومن حج الأميرة المرينية الحرّة مريم زوجة والد أبي الحسن وأم أخته، ثم ما صحبه ذهابا وإيابا من الهديتين العظيمتين المتبادلتين بين السلطان أبي الحسن والملك الناصر صاحب مصر والحجاز، وما كان من احتفال الملكين المذكورين بهذا الركب.

وكانت ظروف تسيير هذا الركب أنّ أبا الحسن لما نجح في توحيد المغربين الأقصى والأوسط، وارتفعت العوائق عن طريق الحاج، أجمع على كتابة نسخة من المصحف الكريم بخط يده لتكون وقفا خالصا منه على المسجد النبوي المعظم، فانتسخها بخطه لهذه الغاية، وجمع الورّاقين لتذهيبها وتنميقها، والقرّاء لضبطها وتهذيبها حتى اكتمل شأنها، ووضع لها وعاء مؤلفا من خشب الأبنوس والعاج والصندل فائق الصّنعة، وغشّاه بصفائح الذهب، ونظمه بالجوهر والياقوت، واتخذ له أصونة الجلد المحكمة الصناعة[1]، فكان معظم القصد من تسيير هذا الركب والاحتفال الكبير به في المشرق والمغرب هو بعث المصحف الشريف.

ومن اهتمام السلطان بهذا الركب أن بعث فيه وجهاء دولته، وأعيان العرب، ورجال الدين والصلاح، وكل من له شهرة بمزية، كما بعث في رفقة الأميرة مريم حظية والده عددا من نساء الدولة وأحظيائها، وانضاف إليهم جماعات كثيرة جدّا سارت معهم برسم الحج، الأمر الذي جعله ركبا عظيما للغاية.

وإلى جانب المصحف الشريف الذي حمله الركب إلى المسجد النبوي، بعث السلطان أبو الحسن لملك مصر والحرمين الشريفين بهدية عظيمة كانت حديث المجالس في المغرب والمشرق[2]. كما أفاض من كرمه على الركب، فأعطى للأميرة المرينية 3600 دينار ذهبي، و16500 دينار ذهبي برسم شراء الرباع بالمدينة المنورة لتكون وقفا مؤبّدا على القرّاء في المصحف الشريف، وللنسوة اللائي سافرن معها 670 دينار، وأعطى للرسول الحامل للهدية 1000 دينار ذهبي، ولشيخ الركب 500 دينار، ولقائده 400 دينار وكساوي متعددة وبغلات، ولقاضيه 300 دينار وكسوة رفيعة، ولجماعة الضعفاء من الحجاج 600 دينار، وغير ذلك من

(1) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، 314/7.

(2) عن تفاصيل هذه الهدية العظيمة التي قُدّرت قيمتها بما يزيد عن مائة ألف دينار، وهدية صاحب مصر ردّا عليها، والمصادر التي تناولتها، والرسائل المتبادلة في هذا الشأن بين الملكين، يُنظر محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص 182-198.

لائحة العطاءات التي ذكرها ابن مرزوق في المسند[1]. وفوق ذلك بالغ السلطان أبو الحسن في رسالته للملك الناصر في التوصية بالحجاج حتى يسهل طريقهم في الذهاب والإياب، مع الرغبة في إيصال المصحف الكريم للمسجد النبوي.

ولما انتهت الاستعدادات والتحضيرات اللازمة للرّحلة فصل الرّكب من مدينة تلمسان يوم الخميس 25 ربيع الأول سنة 738هـ/1338م تحت قيادة هيئة عليا تتألّف من قاض وقائد وشيخ (أمير)، أما القاضي فهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن التسولي التازي المعروف بابن أبي يحي[2]، والقائد هو أبو سعيد عثمان بن يحي بن محمد بن جرار التلمساني[3]، وأما الشيخ (الأمير) فهو الحسن بن عمران الذي نصّت عليه رسالة السلطان أبي الحسن للملك الناصر المكتوبة في شأن هذا الركب وسفارته.

ووصل الرّكب إلى القاهرة في 22 رمضان من السنة نفسها فبالغ الملك الناصر في حسن استقباله والاحتفال به، وهذا ما نصّت عليه رسالته التي كتبها إلى السلطان أبي الحسن، وقد جاء فيها أنّه استقبل أهل الركب على بعد بالإكرام، وأحلّهم من القرب في أعلى مقام، وصرف إلى تلقائهم وجه الاقبال والاهتمام، وأمر بتسهيل طريقهم، وتوصيل البرّ لفريقهم، واحتفل بهم في قدومهم ومقامهم وتشييعهم، وكتب على أيديهم إلى أمراء الأشراف بالحجاز للنهوض في حقهم.

أما عن تفاصيل مظاهر هذا الاستقبال فقد أوردها المقريزي ونقلها عنه المقري[4]، وهو ما أجمله ابن خلدون في العبارة التالية: وأدّوا رسالتهم إلى الملك الناصر وهديتهم، فتقبلها وحسن لديه موقعها، وكان يوم

(1) ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، ص 453-454.

(2) الشيخ الحافظ، الفقيه القاضي، من صدور المغرب، له مشاركة في العلم وتبحر في الفقه ووجاهة عند الملوك، صحبهم وحضر مجالسهم، واستعملوه في السفارة عنهم للأندلس والشرق، كان حسن العهد، مليح المجالسة، كريم الطبع، مات سنة 749 هـ ودُفن ببلده تازة. أبو الحسن بن عبد الله النباهي، المرقبة العليا، بيروت، منشورات دار الأفاق الجديدة، 1983، ص 136.

(3) من عائلة بني جرار السالفة الذكر عند ركب سنة 724هـ، ذكر عنه ابن خلدون أنّه استأذن السلطان أبا الحسن عند تغلّبه على تلمسان في الحج بالناس، فأذن له، ثم كان قائد الركب من المغرب إلى مكة سائر أيامه حتى استولى أبو الحسن على أعمال الحفصيين، وكانت وفاته في رمضان عام 749هـ. عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، 136/7. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، القاهرة، 1966، ج 3، ص 66.

(4) أحمد المقري، نفح الطيب، 403/4.

وفادتهم عليه بمصر يوما مشهودا تحدّث الناس به دهرا، ولقّاهم في طريقهم أنواع البرّ والتكرمة حتى قضوا فرضهم[1].

وفصل أهل الركب من القاهرة إلى مكة تحفهم عناية الملك الناصر حتى قضوا فرضهم، ووضعوا المصحف الشريف بحيث أمرهم السلطان، ثم عادوا إلى القاهرة فاستقبلهم من جديد بكل حفاوة، وبعث معهم إلى السلطان أبي الحسن مكافأة على هديته، هدية عظيمة بقي حديثها مذكورا بين الناس كما يقول ابن خلدون[2]، ومرّ الركب في طريق عودته بتونس حيث عُرضت الهدية على سلطانها، ثم وصلت إلى صاحبها بتلمسان حيث وقعت منه أحسن المواقع.

ويجمل ابن خلدون[3] الحديث عن بقية الأركاب التي انتظمت على عهد السلطان أبي الحسن انطلاقا من مدينة تلمسان في عبارات لا تخلو من التعميم ولا تفي بالغرض في استجلاء معالم تلك الأركاب، ومنها ركب سنة 740هـ، وسنة 745هـ، وسنة 748هـ، وفي الأول كان انتساخ المصحف الشريف الثاني على شاكلة المصحف الأول وبعثه إلى الحرم المكي، وفي الأخير كان انتساخ المصحف الثالث وبعثه إلى بيت المقدس مصداق ذلك عبارة المقري: وكان السلطان أبو الحسن كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطّه وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تُشدّ إليها الرحال[4].

ومنذ أواسط القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وبعد أن استعاد الزيانيون حكمهم من بني مرين على المغرب الأوسط، لم نعد نسمع عن تنظيم أركاب الحج الرّسمية بالصورة التي عهدناها لدى السلاطين المرينيين في فترة توحيدهم للمغربين الأوسط والأقصى، رغم أنّ الرحلات الحجية الفردية والجماعية لم تتوقف مصداق ذلك كتب التراجم والفهارس التي حفلت بأسماء هؤلاء المرتحلين.

منهم قاضي الجماعة بفاس وتلمسان أبو عبد الله محمد بن أحمد القرشي التلمساني المقّري الجد المتوفى سنة 759هـ/1357م، المشار إليه بالعدوة المغربية اجتهادا وحفظا وعناية واطلاعا ونقلا ونزاهة، كان قائما على العربية أتمّ القيام والفقه والتفسير وحفظ الحديث والأخبار والتاريخ والآداب، حجّ فلقي بمكة إمام الوقت

(1) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، 314/7.
(2) المصدر نفسه، 315/7.
(3) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، 315/7.
(4) أحمد المقري، نفح الطيب، 403/4.

أبا عبد الله التوزري المعروف بخليل ورضي الدّين الشافعي وغيرهما من الزائرين والمجاورين وأهل البلد[1]. هذا وقد حفلت موسوعة الدّرر الكامنة لابن حجر العسقلاني بمجموعة من هؤلاء المرتحلين إلى الحج، من أهل القرن الثامن الهجري، من بلاد المغرب الأوسط.

وتتواصل الرحلات الحجية خلال القرن التاسع الهجري (15م)، وتبقى مصادر التراجم دوما عمدتنا في معالم تلك الرحلات مثل موسوعة الضوء اللامع للسخاوي، والنجم الثاقب لابن صعد التلمساني، وكتاب روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخّرين للمؤلف نفسه، وميزة الكتاب الأخير أنّه يترجم لأربعة علماء عاشوا كلّهم في القرن التاسع الهجري، وينتمون جميعا إلى غرب المغرب الأوسط، وكانت لهم رحلات إلى الحجاز.

وأوّل الأربعة هو الشيخ محمد بن عمر الهوّاري (751-843هـ)، الذي اشتهرت به وهران حتى اليوم وانتسبت إليه، فبعد حياة الدرس والتحصيل العلمي في حواضر المغربين الأوسط والأقصى، شدّ الرحال إلى المشرق عبر تونس وليبيا مرورا بمصر، ثم التحق بالحجاز وأدّى فريضة الحج بمكة وسكن برباط الفتح، وزار المدينة المنورة وأقام هناك أعواما حيث اتصل بالعلماء المجاورين وأخذ عنهم. ثم قفل راجعا إلى بلاده فانتقل إلى غزة والتحق ببيت المقدس، ومنها إلى بلاد الشام ومصر، ومرّ بليبيا وبتونس وصولا إلى وهران[2]، هكذا يجمل ابن صعد رحلة الهوّاري إلى الحجاز دون ذكر تواريخها وتفاصيل أخبارها.

وأما الثاني فهو الشيخ الحسن أبركان التلمساني المتوفى سنة 857هـ/1453م، كانت له رحلة إلى الحج فمرّ على بجاية وقسنطينة ثم انتقل إلى تونس وليبيا ومصر، ودخل مكة وحج وزار المدينة وأقام هناك مجاورا خمس سنوات، ثم عاد إلى تلمسان واستقرّ مع والدته المسنّة، ولم يخبرنا ابن صعد عن تفاصيل إقامته الطويلة في الحجاز[3].

وثالث الأربعة هو الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن علي التازي نزيل وهران، درس في تلمسان على ابن مرزوق الحفيد، ثم انتقل إلى وهران وتعرّف بها على الشيخ محمد بن عمر الهوّاري السالف الذكر ووثق

(1) لسان الدّين ابن الخطيب، الإحاطة في أ خبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1974، ج 2، ص 203.

(2) محمد بن صعد التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخّرين، تحقيق يحي بوعزيز، الجزائر، عالم المعرفة، 2009، ص 42-43.

(3) المصدر نفسه، ص 116.

صلاته به. رحل حاجا في سنة 830هـ/1426م رفقة نظيره في العلم والدّين الشيخ أحمد الماجري، ولما وصلا إلى القاهرة وجدا ركب الحجاز قد فاتهما بالطلوع فتأسفا لذلك، وبعد أيام قليلة وصل مركب لمرسى بولاق فسافرا فيه، ووصلا جدّة في أسرع وقت وعلى أفضل حال.

دخل مكة وقضى فرضه ثم تفرّغ لمجالسة العلماء والأخذ عنهم فتتلمذ لعلاّمة علمائها وكبير محدّثيها قاضي قضاة المالكية تقي الدّين أبو الطيب محمد بن أحمد الفاسي الأصل المكّي الدّار وأجازه، ثم رحل إلى المدينة المنورة وأقام بها مجاورا حتى رمضان عام 832هـ/1428م، درس خلال ذلك على علماء الوقت منهم أبو الفتح محمد بن أبي بكر القرشي الشافعي، ثم عاد إلى تلمسان واستقرّ بها بعض الوقت، ثم انتقل إلى وهران وأقام بها حتى وفاته سنة 866هـ/1462م[1].

وآخر الأربعة هو الشيخ أبو العباس أحمد بن الحسن بن عبد الرحمن الغماري نزيل تلمسان، من بلاد غمارة انتقل إلى تلمسان ودرس على شيوخها. وفي أوائل العشرية الرّابعة من القرن الثامن الهجري . سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع ركب الحج الذي انطلق من تلمسان في تلك السنة، ومرّ على تونس وحضر بها بعض دروس الشيخ العبدوسي، ثم التحق بالحجاز وأدّى الفريضة، وفي طريق العودة التقى بمدينة عنابة بعض القادمين من المغرب فسألهم عن أهله وإخوانه فذكروا له أنّ أحد إخوانه قد توجّه إلى تونس قاصدا أداء الفريضة والاجتماع به، فرجع إلى تونس يبحث عنه، فقيل له قد سافر مع ركب الحجاز، فتتبّعه في كل مكان حتى وصل الحرم الشريف فالتقى به وحجّ معه حجته الثانية، ثم عاد إلى تلمسان وأقام بها حتى وفاته سنة 874هـ/1470م[2].

وممّن سافر مع الشيخ الغماري في ركب الحجاز امرأة فقيرة ليس لها سوى مقلات تجعلها على ظهرها، ثم تلتقط الحطب في أثناء مشيها على رجليها، فإذا نزل الركب أوقدت النار وطبخت في تلك المقلات خبز جيرانها من أهل الرّكب فيعطونها كسرة من كل خبزة تتقوّت بها، وبقيت على تلك الحالة بمقلاتها على ظهرها إلى أن قضت حاجتها وأدّت فريضة الحج[3].

وهناك ظاهرة بارزة ميّزت القرن التاسع الهجري (15م) في الجزائر وهي ظهور عقيدة المرابط وانتشار الزوايا وافتتاح عهد التصوف العملي خصوصا، وما نجم عنه من ضعف الطاقة العقلية وانتشار الطرقية

---

(1) محمد بن صعد التلمساني، روضة النسرين، ص 139-142.

(2) المصدر نفسه، ص 193-194.

(3) محمد بن صعد التلمساني، روضة النسرين، ص 194.

والاعتقادات الخرافية، ويعود ذلك بالدّرجة الأولى إلى ضعف الدّولة أمام الانحلال الدّاخلي والخطر الخارجي، وهذه الظاهرة هي التي ستزداد انتشارا وإغراقا في القرون اللاحقة للعهد العثماني وهو ما يصوّره النص التالي:

"ففي هذه القرون التي أعقبت تفكك الموحدين وسقوط دولتهم وشهد فيها المغرب العربي هذه الفترة القلقة المفعمة بالاضطرابات السياسية، وعرف إبانها الأطماع الأجنبية، سرت في جميع أجزائه روح غريبة جعلت الشعب يقبل إقبالا لم يعرفه من قبل على أمور المجاهدة والكشف، وينخرط في الزوايا والربط ويؤمن بالأولياء وكراماتهم، ويتناقل خرقهم للعادات وإخبارهم بالمغيبات واحتجابهم عن الأنظار. إلى غير ذلك من التصاريف، وهو مأخوذ كأنّه قد أصابه مسّ من الجن، ثم نجده يندفع في زيارة قبور هؤلاء الأولياء وأضرحتهم ويقيم حلقات الذكر حول قبابهم وتتشكل بهذه الطرق الصوفية التي ملأت البلاد من أقصاها إلى أقصاها بكل ما عرف لها من نظام كهنوتي دقيق يضم النقباء والنجباء والأبدال والأوتاد والمريدين"[1].

وهكذا تكونت في الجزائر خلال القرن التاسع مجموعة من الزوايا منها زاوية الثعالبي في مدينة الجزائر، وضريح محمد الهواري في وهران، والزاوية الملارية في قسنطينة، وزاوية السنوسي بتلمسان وغيرها كثير، ثم عمّت كل القطر الجزائري في القرون اللاحقة. وإلى جانب وظائفها الدينية والتربوية كانت الزوايا تقدّم خدماتها لأركاب الحج في ذهابها وإيابها وكان بعضها يشرف على تنظيم تلك الأركاب.

(1) يحي هويدي، تاريخ الفلسفة الإسلامية في القارة الإفريقية، القاهرة، 1966، ص 343.